وظيفة الأدب في نظر الإسلام

للدكتور مصطفى يونس
عميد الكلية

منذ عرف الناس معنى الأدب وهم يختلفون في مفهومه ، ويتنازعون حول مضمونه ، ويخضعون في توجيهه لعوامل شتى ، تتفق مع الواقع الذي يعيشونه ، أو تتطلع إلى المستقبل الذي ينشدونه ، ويعملون على تحقيقه .

وهم على اختلافهم في مفهوم الأدب ، وتباينهم في تحديده تحديداً دقيقاً ، نراهم يتفقون على أن للأدب وظيفة سامية ، يقوم بها الأدباء في كل عصر ، بقدر ما أتيح لهم من الفرص وعلى حسب ما قدر لهم من ظروف الأداء .

ولست أعرف أنهم يختلفون في تحديد هذه الوظيفة ، وتوضيح معالمها وأبعادها وإن كانوا يختلفون في توجيهها الوجهة التي يريدونها حسبما تمليه عليهم ظروف الحياة التي يعيشونها ، وتحتمه ضرورة الإمكانات التي يملكونها .

والذين يؤرخون للأدب منذ عهد بعيد يقولون : إنه كان متصلا بالفكر الديني اتصالا مباشراً ، يحمل أفكار الكهان ، ويصوغ طقوس العبادة ، وتكتب به الترانيم التي يستخدمها رجال الدين ، لإثارة مشاعر الناس ، ودفعهم إلى الانتظام في صفوف الناسكين .

تروى كتب التاريخ أن للمصريين القدماء أدبا كان الملوك والكهان يستخدمونه في عباداتهم ، وحين يجتمعون في المناسبات مع رعيتهم . وقد

وجدت مجموعة من القصص تحكى حياة الآلهة فى نظرهم ، وتصور عذاب الناس وثوابهم كما شاء لهم خيالهم أن يتصوروه ، وتعلن معتقداتهم فى أن هناك إلهاً للخير وإلهاً للشر ، وتسجل نماذج للحياة التى يحياها البشر فى قبورهم بعد أن يفارقهم الأحباب ، وتعود إليهم الروح(١) .

والأدب الإغريقى القديم فيه صور من هذه الكتابة تؤكد أن فلاسفة الإغريق وكهانهم كانوا يتخذون من الأدب مطية ذلولا يصلون بها إلى تحقيق مآربهم فى نشر عقائدهم الموروثة ، وتثبيت أفكارهم الدينية التى يريدون تثبيتها وتأكيدها .

وقبل أن ينشر الإسلام لواءه على الجزيرة العربية ، ثم ينطلق منها إلى ربوع العالم ، كان هناك أدب ، وكان للأدب آنذاك وظيفة واضحة ، وكانت تلك الوظيفة تخدم أغراض الجاهلية الأولى ، وتخضع للعوامل الفكرية والعقدية والقبلية التى تؤثر فى الأديب تأثيراً قوياً ، وتوجهه الوجهة التى تتفق مع الحياة التى يعيشها ، والظروف التى تحيط به . فقارىء الأدب الجاهلى يرى نماذج من هذا الأدب ظهرت فيها روح العصر ، وتجلت فيها آثار البيئة ، وانعكست عليها مظاهر الحياة التى كان يعيشها الأديب الجاهلى بكل مشاعره وأحاسيسه وكيانه وسواء فى ذلك تلك النماذج التى كانت تصور عبث العابثين . وانطلاق الماجنين ، أم تلك القصائد التى كانت تسجل حكمة الحكيمين ، وما جاء فى كلام الرهبان والحكماء من أخبار وقصص ، وحكم وأمثال . إن ذلك كله ينزع عن هذا الاتجاه الذى اقتنع به الأديب الجاهلى ، ورأى أنه يحقق الوظيفة السامية للأدب كما رسمها وحدد أبعادها .

والإسلام دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، ورسالة السماء التى بعث الله

---

(١) تاريخ مصر القديم — زكريا جاد / ٣٦ .

بها محمدا صلى الله عليه وسلم إلى هذه الأرض ليطهرها من الرجس ، وينقذها من الضلال ، ويوضح لها الطريق إلى سعادتها وخيرها وصلاحها .

ولم يكن فى وسع الإسلام أن يتجاهل الأدب وقد انحرف كثير منه عن طريق الجادة ، وابتعدت الوفرة الغالبة من الأدباء عن المنهج السوى ، والصراط المستقيم ، وجاء العديد منه فى صور وأشكال لا يرضى عنها الخلق ، ولا يقبلها الذوق الأدبى السليم الذى أراده لعباده المؤمنين .

ولم يكن فى وسع الإسلام أن يفرض قيوداً حديدية يطوق بها أعناق الأدباء ، ويسوقهم سوقاً إلى الخضوع لها خضوعاً تاما دونما اقتناع أو تفكير .

ولكن الإسلام فهم طبيعة الأدب فهماً سليما ، ووجهه الوجهة التى يريدها ويرضاها دون أن يقلل من شأنه ، أو يهون من أمره ، أو يخرجه عن طبيعته وخصائصه . فالأدب فى نظر الإسلام هو الوسيلة الرافية التى يتم بها ترجمة الشعور والوجدان ترجمة واعية فى قوالب لفظية ممتازة .

فالإسلام يعلم أن هناك منافذ كثيرة يمكن أن ينفذ منها الشعور والوجدان إلى عالم الوجود ، ولكن الأدب يملك من وسائل التعبير ما لا تملكه الفنون الأخرى . هو يملك الكلمة القادرة على نقل المشاعر وتصوير الأحاسيس ، وتقديم المعنويات فى صورة محسوسة يراها البصر ، وتسمعها الأذن ، وتحسها اليد ، ويدركها الفؤاد(١) .

قد تملك الموسيقى من الآلات والأوتار ما تستطيع بها أن تحرك المشاعر ، وأن تثير الوجدان . وقد يملك الرسم من الأشكال والألوان ما يمكنه بواسطتها أن يستثير النفس ، وأن يبهر الأبصار . . وربما يملك التصوير

---

(١) راجع كتاب البلاغة والنقد لمهدى علام / ١٢٠ .

من دقة الأجهزة وقوة الإتقان ما يستطيع به أن يصل إلى تصوير المرئيات فى صورة رائعة ، وشكل دقيق . ولكن هذه الفنون جميعها تصبح عاجزة تماما حين تتعرض لتجربة جديدة من شأنها أن تصور المعانى ، وتجسم المشاعر ، وتبرز الأحاسيس فى صورة ملموسة واضحة . هنا يبدو دور الكلمة . والكلمة وحدها هى القادرة على نقل المشاعر والأحاسيس فى أمانة وصدق ، ومن غير قصور أو إخلال .

لقد فهم الإسلام وظيفة الأدب ، ووجهه منذ اللحظة الأولى لخدمة أغراضه ، وتحقيق أهدافه ، فللأدب فى نظر الإسلام وظيفة سامية ، ومهمة كبيرة . وهى — فى جوهرها — لا تخرج عن مبادىء الإسلام التى أقرها وارتضاها ، ولا تناهض طبيعة الأدب التى عرفها وألم بها .

إن وظيفة الأدب فى الإسلام تتمثل فى أن يرقى بالمشاعر ، ويسمو بالوجدان ، ويعمل على تعميق القيم والمبادىء فى نفوس المسلمين ، ويدفع بفنونه المختلفة عن الدعوة الإسلامية كيد أعدائها ، وتربص الكائدين لها . ويقدم الإسلام للناس فى صورة واضحة ممتازة .

وفى ضوء هذه الوظيفة تعامل الإسلام مع الشعر . فقد كان للشعر دولته الكبرى ونفوذه الواسع . وتأثيره العظيم . ولم يغفل الإسلام هذا الفن الرائع ، ولكنه تعامل معه على هذه الصورة . فأقر الإسلام الشعر ، وجعل منه ما يرقى إلى درجة الحكمة ، ويرتفع إلى مستوى التفكير الراقى . يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : إن من الشعر لحكما . وسواء أروى الحديث الشريف بضم الحاء وسكون الكاف . أم بكسر الحاء وفتح الكاف ، فإن ذلك يعطى دلالة واضحة على تقدير الإسلام للشعر ، ووضعه فى المكانة التى يرضى عنها ويوافق عليها .

وليس صحيحاً مايقوله بعض الناس : إن الإسلام حارب الشعر ، وتحدى مسيرته ، وتصدى لأصحابه . ينقل الرواة فيما ينقلون عن ابن سلام أنه قال : « فجاء الإسلام وتشاغلت عن الشعر العرب ، وتشاغلوا بالجهاد ، وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته . فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير(١) » .

إن الذين يحاولون أن يأخذوا من هذا القول دليلا على ضعف الشعر ، وبرهاناً على أن الإسلام حارب الشعر ، وتصدى له ، يخطئون خطأ كبيراً . فابن سلام لم يقل ذلك القول إلا ليعلن للناس أن الشعر العربي قد ضاع منه شيء كثير ، وأن يد الزمن أتت عليه فلم يدون منه شيء(٢) ، وما كان في قصد ابن سلام أن الإسلام حارب الشعر ، أو تصدى لأصحابه ومريديه .

ولعل هذا الفهم الخاطيء هو الذي دعا ابن خلدون إلى أن يقول في مقدمته : « انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي ، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه ، فأخرسوا عن ذلك ، وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ، ثم استقر ذلك ، وأونس الرشد من الملة ، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره ، وسمعه النبي ﷺ ، وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه(٣) » .

الحقيقة أن الشعر لم يتوقف في عهد النبي ﷺ ، ولم يضعف في صدر الإسلام لأن الرسول ﷺ لم يحارب الشعر ، ولم يعترض مسيرته ويتعقب أصحابه ، بل على العكس من ذلك كله ، لقد كان يحث على الشعر ، ويدفع

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، طبعة دار المعارف ، ص ٢٢

(٢) راجع تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي لشوقي ضيف ص ٣٥

(٣) مقدمة ابن خلدون ، طبعة المطبعة البهية ، ٤٢٧ .

المجيدين إلى قوله وبعض الشعراء على نظمه ، وتثبيتهم عليه . بل لقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يعجب بشعر حسان ، وكان يقول له : « قل وروح القدس معك » . ولقد كان موقفه مع كعب بن زهير دليلا واضحا على إعجابه بالشعر ، وتأثره به وتفاعله معه . فلقد أنشده كعب بن زهير قصيدته اللامية فهش له ، وتهلل بها ، وأثابه عليها حتى خلع بردته عليه إعجاباً بما قال ، ومكافأة لما قدم .

ولقد سار صحابة رسول الله ﷺ على ذلك المنهج وتابعوا هذه الخطى ، فكانوا يألفون الشعر ويرددونه . بل كانوا كثيرا ما يتناشدونه فى المسجد ، ويستمعون إليه(١) .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسأل وفود القبائل عن شعرائهم ، وكانوا ينشدونه بعض أشعارهم ، وقد ينشدها هو متعجباً مستحسناً(٢) . وقد روى عنه أنه كتب إلى أبى موسى الأشعرى واليه على البصرة يقول له : « مر من قبلك يتعلم الشعر ؛ فإنه يدل على معالى الأخلاق ، وصواب الرأى ومعرفة الأنساب(٣) » ، وقال عنه ابن سلام : « كان لا يكاد يعرض أمراً إلا أنشد فيه بيت شعر(٤) » .

إن ذلك كله يؤكد أن الإسلام لم يحارب الشعر ولم يتصد لرجاله ولم يعترض طريق الشعراء المجيدين .

ربما يتوهم كثير من الناس أن القرآن الكريم تعقب الشعراء ، وسفه أحلامهم ، ونفر من وظيفتهم حين قال الله تبارك وتعالى: « والشعراء يتبعهم

---

(١) طبقات ابن سعد ١/٩٥

(٢) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى طبعة دار الكتب ٨/١٩٩ .

(٣) العمدة لابن رشيق ١/١٠ .

(٤) البيان والتبيين للجاحظ ١/٢٤١ .

الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » .

إن منشأ هذا الوهم أنهم لم يتموا قراءة الآية الكريمة ، ولم يفهموا معناها . لقد جاء فى نهايتها قول الله تبارك وتعالى : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا . وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون(١) » .

معنى ذلك أن هناك صنفين من الشعراء : صنفاً آمن بالله ورسوله ، وعمل صالحاً ، وذكر الله كثيراً ، وانتصر لمبادئه وأهدافه ، ودافع عن الدعوة بالحق والحكمة ، أولئك هم الشعراء الذين يرضى عنهم الله ورسوله ، وينسلكون فى عداد الشعراء الصالحين ، وصنفاً آخر تمرد على الخلق ، وتجرد من الفضيلة وحارب الله ورسوله ، وأولئك هم الشعراء الذين لا يرضى عنهم الله ورسوله ، ولا يندرجون فى صفوف الشعراء الصالحين ، ومن المؤكد أن هذا الصنف من الشعراء هو الذى ورد فى شعرهم قول رسول الله ﷺ « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلىء شعرا »(٢) .

ذلك موقف الإسلام من الشعر ، يبارك جيده ، ويستحسن صائبه ، ويؤيد منه ما انطوى على الخلق ، أو اتسم بطابع الفضيلة ، أما الشعر الذى يخدش العرض ، وينتهك الحياء ، ويقف إلى جوار الباطل فإن الإسلام ينكره ويأباه .

وعلى ضوء هذا الموقف الواضح حدد الإسلام وظيفة الشعر ، وسخره لتحقيق أهدافه ، وخدمة مبادئه ، ومناوءة الأعداء الذين اتخذوا من الشعر سلاحا قويا يحاربون به الدعوة الإسلامية ، ويتعرضون لصاحبها صلوات الله

---

(١) سورة الشعراء . الآيات ٢٢٤ — ٢٢٧ .

(٢) العمدة لابن رشيق طبعة أولى جـ١ ص ١٢

وسلامه عليه بالتشهير والتجريح، يقول الدكتور شوقي ضيف(٣) : « معروف أن قريشا حادت الله ورسوله حين بعث ؛ مما اضطره إلى الهجرة من مكة إلى المدينة ، وسرعان مانشبت بين البلدتين معركة حامية الوطيس ، تقف فيها قريش ومن يعينها من العرب فى جانب ، ويقف الرسول صلوات الله وسلامه عليه ومن هاجروا معه من مكة ، ومن التفوا حوله فى المدينة فى جانب آخر ، وبمجرد أن اشتبكت السيوف أخذ الشعراء فى الجانبين المتناقضين يسلون ألسنتهم . ولم تكن مكة فى الجاهلية تعرف الشعر إلا بعض مقطوعات تنسب لورقة بن نوفل وغيره من المتحنفين ، ومقطوعات أخرى تنسب لبعض فتيانها مثل نبيه ومسافر اللذين ترجم لهما أبو الفرج فى أغانيه . فلما نشبت الحرب بينها وبين الرسول لمعت فيها أسماء شعراء كثيرين مثل أبى سفيان بن الحارث ، وعبد الله بن الزبعرى ، وضرار بن الخطاب الفهرى ، وأبى عزة الجمحى ، وهبيرة بن أبى وهب المخزومى . وقد أخذوا يسددون سهام أشعارهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين ، وأنصاره من المدينة ، وعز ذلك عليه ، لا لأنهم كانوا يهجونه فحسب ، بل أيضاً لأنهم كانوا يصدون عن سبيل الله بما يذيع من شعرهم فى العربية ، فقال للأنصار : « مايمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسان بن ثابت : أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال : « والله مايسرنى به مقول بين بصرى وصنعاء ، وانضم إليه كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، فاحتدم الهجاء بينهم وبين شعراء مكة . يقول عبد الله ابن رواحة مسجلا على مشركى مكة تخلفهم عن القتال ، وتقاعدهم عن الحرب ، وخلفهم الموعد ، وعصيانهم لرسول الله ﷺ ، ويعتز بطاعته لله ، وفدائه للدعوة الإسلامية ، ولقائدها الأعظم بكل ماملكت يداه(١) :

وعدنا أبا سفيان وعدا فلم نجد لميعاده صدقا وما كان وافيا

---

(١) نهاية الأرب ١٧/١٥٦ .

فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا ... لأبت ذميما وافتقدت الموالي
تركنا به أوصال عقبة وابنه ... وعمرا أبا جهل تركناه ثاويا
عصيتم رسول الله . أف لدينكم ... وأمركم السوء الذى كان غاويا
فإنى — وإن عنفتمونى — لقائل ... فدى لرسول الله أهلى وماليا
أطعناه لم نعدله فينا بغيره ... شهابا لنا فى ظلمة الليل هاديا

ويقف حسان بن ثابت بعد هزيمة المشركين فى غزوة الخندق ، منددا بهزيمتهم المنكرة ، فاضحا مكائدهم الخبيثة ، كاشفا عن تلك القوة الكامنة التى تنصر المسلمين على أعدائهم ، وتؤدى بهم إلى الفوز فى معاركهم ، والانتصار فى حروبهم ، فيقول(١) :

واشك الهموم إلى الإله وما ترى ... من معشر متألبين غضاب
أموا بغزوهم الرسول وألبوا ... أهل القرى وبوادى الأعراب
جيش عيينة وابن حرب فيهمو ... متخطمين بحلبة الأحزاب
حتى إذا وردوا المدينة وارتجوا ... قتل النبى ومغنم الأسلاب
وغدوا علينا — قادرين — بأيدهم ... ردوا بغيظهم على الأعقاب
بجنوب عاصفة تفرق جمعهم ... وجنود ربك سيد الأرباب
وكفى الإله المؤمنين فتالهم ... وأثابهم فى الأجر خير ثواب
من بعد ما قنطوا ففرج كربهم ... تنزيل نص مليكنا الوهاب
وأفر عين محمد وصحابه ... وأذل كل مكذب مرتاب
مستشعر للكفر دون ثيابه ... والكفر ليس بظاهر الأثواب
علق الشقاء بقلبه فأرانه ... فى الكفر آخر هذه الأحقاب

ولقد كان ضروريا حين تعرض الشعراء المسلمون لهجاء الكفار ومعارضتهم أن يتجهوا إلى مدح الرسول ﷺ باعتباره حامل لواء الإسلام ،

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ١١ .

والقائد الأعلى لصفوف المسلمين ، ولم يكن هجاء المشركين موجها لشخصه الكريم ، وإنما كان موجها إليه باعتباره حاملا لهذه الرسالة العظيمة التى بشر بها ، وأعلنها للناس جميعا .

لقد كانت الدعوة الإسلامية — منذ جهر بها صاحبها صلوات الله وسلامه عليه — بحاجة إلى شعراء مجيدين يتصدون للهجوم المنظم ، وغير المنظم ، من قريش وغير قريش ، على هذه الدعوة الجديدة ، وكان الشعر الذى صاحب الدعوة فى تلك الفترة وفيا باحتياجاتها غاية الوفاء . وكان حسان بن ثابت فى طليعة الشعراء الذين حملوا لواء الدفاع عن هذه الدعوة .

يقول الدكتور زكى مبارك : «كان حسان بن ثابت أكبر شعراء الرسول ويمتاز بالصدق والإخلاص ، وكان يمدح الرسول ﷺ ، ويقارع خصومه على الطرائق الجاهلية وكان الرسول ﷺ أوصاه أن يتعلم الأنساب من أبى بكر ليكون شعره أوجع فى الهجاء . وكذلك استطاع بفضل ما عرف من أنساب قريش أن يهجوهم هجاء موجعا كان النبى ﷺ يراه أشد عليهم من وقع النبل »(١)

وقد كانت المدائح تمثل جانبا كبيراً من شعر حسان ، فديوانه ملىء بالمدائح النبوية . غير أن هذه المدائح لم تكن تخلو من هجاء المشركين وكشف عيوبهم ، وبيان مثالبهم . ومن أقوى قصائده فى المدح القصيدة العينية التى يقارع فيها خصوم الدعوة الإسلامية ، ويتخذ من مدح الرسول ﷺ وأهله سندا لمقارعة أولئك الخصوم .

روى أن وفد تميم لما قدموا على النبى ﷺ قالوا : جئنا لنفاخرك ، وقد جئنا بشاعرنا وخطيبنا ، فقام خطيبهم عطارد بن حاجب فتكلم ، وقام

---

(١) المدائح النبوية فى الأدب العربى للدكتور زكى مبارك ص ٢٩

خطيب الرسول ﷺ ثابت بن قيس فأجاب، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال :

نحن الكرام فلا حي يعادلنا ... منا الملوك وفينا يقسم الربع
وكم قسرنا من الأحيـــاء كلهم ... عند النهاب وفضل العز يتبع
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا ... من الشواء إذا لم يؤنس الفزع
ألم تر الناس تأتينا سراتهم ... من كل أرض هويا ثم نصطنع
فننحر الكوم عبطا في أرومتنا ... للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
فلا ترانا إلى حي نفاخرهم ... إلا استفادوا وكاد الرأس يقتطع
إنا أبينا ولا يأبى لنا أحد ... إنا كذلك عند الفخر نرتفع
فمن يقادرنا في ذاك يعرفنا ... فيرجع القوم والأخبار تستمع

فقام حسان فقال :(١)

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم ... لا يطبعون ولا يرديهم الطمع
أعطوا نبي الهدى والبر طاعتهم ... فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا
نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها ... إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع
كأنهم في الوغى والموت مكتنع ... أسد بحلية في أرساغها فدع
إذا نصبنا بقوم لا ندب لهم ... كما يدب إلى الوحشية الذرع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفرقت الأهواء و الشيع

---

(١) ديوان حسان بن ثابت

أهدى لهم مدحى قلب يؤازره فيما يحب لسان حائك صنع
فإنهم أفضـل الأحياء كلهم إن جد بالناس جد القول أو شمروا

إن قصائد كثيرة من هذا النوع كتبها حسان بن ثابت ، وكتبها غيره من الشعراء المسلمين فى مدح رسول الله ﷺ ، وهجاء أعدائه ، وفى مدح صحابة رسول الله ﷺ ، وبيان مكانتهم وبلائهم وصدقهم ، ولم يكن الهدف من وراء ذلك المدح أو ذلك الهجاء ما كان يهدف إليه المدح والهجاء فى العصر الجاهلى ، وإنما كان الهدف الأصيل هو تأمين جانب الدعـوة الإسلامية، وتوفير مقومات الأمن والاستقرار لها . فإذا سكتت أصوات الشعراء التى ترتفع لهدم الدعوة الإسلامية والتطاول عليها ، وإذا خرست ألسنة الذين يطلقونها بالشعر لإيذاء النبى ﷺ وأصحابه ، هدأت نفوس المؤمنين ، واتجهت إلى التفكير الجاد المثمر لبناء الدولة الاسلامية الجديدة ، والانصراف إلى ما فيه خيرها وصالحها ، لذلك كانت وظيفة الشعر فى هذه المرحلة أن يتصدى لهذه الأصوات المتطاولة فيخرسها أو يسكتها وقد نجح الشعر فى ذلك إلى حد كبير .

ولم يكن حسان وحده ليحمل ذلك العبء الضخم . ولكن كان هناك شعراء آخرون اشتركوا معه فى حمل هذا العبء . فمع عبدالله بن رواحة ، وكعب بن مالك كان سويد بن الصامت الذى كان يلقب بالكامل ، وصرمة ابن أنس ، وأبو صرمة بن قيس ، وخبيث بن عدى بن مالك ، وعمرو بن الجموح والحباب بن المنذر ، وغير أولئك من الشعراء المهاجرين والأنصار الذين انضموا إلى الشعراء الثلاثة البارزين ، فكونوا بذلك جبهة قوية من جبهات الدفاع عن الدعوة الإسلامية ، والذود عن حماها . فإذا استقر لها الأمر فى فى مكة والمدينة اتجهت إلى بلاد الله الواسعة ، وانطلقت جموع تحمل راية الله وتنشر دينه الحنيف ، وتعلى كلمة الحق فى شتى بقاع الأرض . وكانت الفتوحات الإسلامية الكثيرة . واحتاجت إلى الشعر ليقوم بواجب المراسل

الحربى الذى يغطى أنباء القتال ، ويسجل أحداث المعارك ، ويذيع أخبار الحرب ، ويعلن بشائر النصر . ويؤدى الشعر وظيفته فى هذا المجال بأمانة واقتدار فقد كان كثير من الشعراء فرسانا أبطالا ، اشتركوا فى القتال بأسلحتهم ، وصنعوا النصر بأيديهم ، أو تجرعوا الهزيمة بأنفسهم ، أو أصابهم نصب أو مخمصة فى سبيل الله .

يحدثنا أبو على القالى فى كتابه « الأمالى » عن عبد الله بن سمرة الحرشى أنه شهد الفتوح فى بدء الإسلام ، وأنه بارز « أرطبون » الرومى فى معارك الروم سنة خمس عشرة من الهجرة ، وأن عبد الله تمكن من قتل « أرطبون » الرومى ، ولكن بعد أن قطعت يده ، فقال فى ذلك : (١)

ويل أم حار غداة الروع فارقنى ... أهون على به إذ بان فانقطعا
يمنى يدى غدت منى مفارقة ... لم أستطع يوم فلطاس لها تبعا
وقائل غاب عن شأنى وقائلة ... هلا اجتنبت عدو الله إذ صرعا
ويل امه فارسا أخلف عشيرته ... حامى وقد ضيعوا الأحساب فارتجعا
يمشى إلى مستجيب مثله بطل ... حتى إذا أمكنا سيفيهما انقطعا
فاشتفه الموت حتى اشتف آخره ... فما استكان لما لاقى وما جزعا
فإن يكن « أرطبون » الروم قطعها ... فإن فيها بحمد الله منتفعا

وحديث القعقاع بن عمرو التميمى عن بطولته الرائعة ، وجهوده الموفقة فى حرب الشام والعراق ، يعلن عن بلائه فى الحرب ، وقدرته على تصوير مشاهد القتال ، وتسجيل أنباء النصر ، فقد اشترك فى معارك كثيرة ، ولم يترك معركة اشترك فيها إلا وصورها فى شعره ، مشيداً ببطولته وبطولة المسلمين . فعل ذلك فى الحضير ، وفى الولجة ، وفى الثنى ، وفى الحيرة ، وفى

(١) الإصابة ٣/٥٩

الحصيد ، وفى الخنافس والمصبخ ، وعند اليرموك ودمشق وفحل ، وفى القادسية والمدائن وجلولاء وحلوان ، وأخيرا فى نهاوند ... يقول فى يوم نهاوند مفتخراً بقومه الذين أبلوا معه فى هذه المعركة بلاء حسنا ، معدداً فعالهم بالفرس (١) .

رمى الله من ذم العشيرة سادرا ... بداهية تبيض منها القوادم
فدع عنك لومى لاتلمنى فإننى ... أحوط حريمى والعدو الموائم
فنحن وردنا فى نهاوند موردا ... صدرنا به والجمع حراق داحم
ونحن حبسنا فى نهاوند حنينا ... بشر وبال أنتجت للأعاجم
فتحن لهم بيتا وفصل سجلها ... غداة نهاوند لإحدى العظائم
ملأنا شعابا فى نهاوند منهم ... رجالا وخيلا أضرمت بالضرائم
وراكضهن الفيرزان على الصفا ... فلم ينجه منها انفساح المخارم
ألا أبلغ أسيدا حيث سار ويممت ... بما لقيت منا جموع الزمازم
غداة هووا فى واخرد فأصبحوا ... تعودهم شهب النسور القشاعم
قتلناهم حتى ملأنا شعابهم ... وقد أنعم اللهب الذى بالصرائم

إن شعر الفتوحات الإسلامية يمثل جانباً هاما من جوانب الأدب الإسلامى ، ويبين فى وضوح وقوة إلى أى مدى فهم الإسلام وظيفة الشعر ، ووجهه الوجهة التى يريدها ويطمئن إليها .

وإذا كانت الأمم الحديثة اليوم تسخر صحافتها وإذاعتها ، ووسائل الإعلام فيها لتغطية أنباء القتال — إذا قدر لها أن تنزل إلى ميدان القتال — فإن الشعر الإسلامى قام بهذه الوظيفة على وجه مرضى حين قدر للجحافل المسلمة أن تخوض غمار الحرب ، وأن تشارك فى رفع راية الله ، وإعلان

---

(١) أسد الغابة ٤/١٢٢

كلمة الحق ، وفى الوقت الذى لم يكن للمسلمين فيه صحافة تعبر عن آرائهم ، أو صحف تنشر أخبارهم ، وتهتم بأمورهم ، ولم تكن تلك وظيفة الشعر فى الفترة التى كان نور النبوة يشرق فيها على هذا الوجود ، أو فى عهد الخلفاء الراشدين من بعده . بل ظل الشعر يقوم بهذه الوظيفة طوال الفترة التى ارتفعت فيها راية الخلافة الإسلامية ، ترفرف فى أنحاء العالم الإسلامى . تحدثنا كتب التاريخ فى العصر العباسى أن المعتصم حين أراد فتح عمورية استشار العرافين ، وعلماء الفلك ، وأنهم أشاروا عليه بتأجيل المعركة حتى ينضج العنب ، وحذروه من عاقبة الزحف قبل هذا الموعد ، ولكن المعتصم لم يأبه بهذا التحذير ، وانطلق بجيشه إلى فتح عمورية ، وكان لهذا التصميم أثره الواضح ، فانتصر على الروم ، وفتح عمورية ... وقام الشعر بوظيفته فى هذا المجال خير قيام ، فارتفع صوته يسجل أنباء النصر ، وينقل أخبار المعارك ، ويذيع قصة عمورية وفتحها . وكان من أقوى الأصوات صوت أبى تمام الذى اندفع فى قصيدته البائية يسجل هذه الأحداث ، والتى بدأها بقوله (١) :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب

وقد قال فيها عن هذا الفتح :

عجائباً زعموا الأيام مجفلة ... عنهن فى صفر الأصفار أو رجب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة ... إذا بدا الكوكب الغربى ذو الذنب
يقضون بالأمر عنها وهى غافلة ... مادار فى الفلك منها وفى قطب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض فى أثوابها القشب
يابوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك المنى حفلا معسولة الحلب

---

(١) ديوان أبى تمام ص ١١٥

أبقيت جد بنى الإسلام فى صعد ... والمشركين ودار الشرك فى صبب
لقد تركت أمير المؤمنين بها ... للنار يوما ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى ... يشله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت ... عن لونها أو كأن الشمس لم تغب

وقد فهم الإسلام طبيعة الشعر فهما دقيقا حين وجهه ليكون أسلوبا من أساليب الدعوة إلى الله ، يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويدعو الناس إلى الخير والبر . وإذا لم يكن هذا الجانب ظاهراً بوضوح فى عهد النبوة والخلافة الراشدة فقد ظهر فيما بعد ذلك واضحا جلياً . ذلك أن الناس فى عهد النبوة كانوا يعيشون فى ظلال القرآن ، ويستضيئون بهدى النبوة . فلم يكونوا بحاجة إلى مجموعة من أبيات الشعر ، ترقق مشاعرهم ، وتستثير وجداتهم ، وتدفعهم إلى الانخراط فى صفوف الصالحين . أما فيما بعد ، فقد ابتعد الناس عن كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو بدءوا يبتعدون ، وأصبحوا بحاجة إلى من يذكرهم بالله ، ويدعوهم إلى الهدى ، ويوضح لهم أمور دينهم .

وقد قام الشعر الإسلامى بهذه الوظيفة الكبرى ، وظهر فى ساحة الأدب الإسلامى شعراء مجيدون ، يحملون لواء الدعوة إلى الله ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويجاهدون فى سبيل الله بالكلمة الطيبة ، والقول الحسن . وليس من شك أن الشعر فى هذا المجال أقوى أثراً ، وأكثر فائدة ، فهو أقدر على استثارة النفس ، واستنهاض الهمم ، لأن طبيعته مخاطبة العاطفة ، وإيقاظ الوجدان ، وتهيئة النفس لتقبل كل مايلقى إليها من نصح وإرشاد ، يقول أبو العتاهية مبتهلا إلى الله تبارك وتعالى ، معترفا بذنبه ، مقراً بضعفه ، راجياً عفوه ورضاه(١) :

---

(١) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ٤/١٩ .

إلهى . لا تعــذبنى فإنى مقـر بالذى قـد كان منى
فمـا لى حيــلة إلا رجائى لعفوك إن عفوت وحسن ظنى
وكم من زلة لى فى الخطايا وأنت على ذو فضـل ومن
إذا فـكرت فى ندمى عليها عضضت أناملى وقرعت سنى
أجن بزهرة الدنيـا جنـونا وأفنى العمر فيها بالتمــنى
وبين يدى محتبس ثقيـــل كأنى قد دعيت له كأنى
ولو أنى صدقت الزهد عنها قلبت لأهلها ظهر المجن
يظن الناس بى خيرا وإنى لشر الخلق إن لم تعف عنى

وكثيرا ما كان الشعراء يتخذون من الموت وسيلة للوعظ والإرشاد ، وذريعة للتذكير بالله ، والتخويف من العقاب ، لترق قلوب الناس ، وتلين أفئدة العباد وعند ذلك يسهل توجيههم إلى الخير ، وانقيادهم إلى طاعة الله .

يقول أحمد بن عبد ربه :

كان سفيان بن عيينة يستحسن قول عدى بن زيد حيث يقول(٢) :

أين أهل الديار من قوم نوح ثم عاد من بعدهم وثمــود
بينما هم على الأسرة والأنمـــاط أفضت إلى التراب الجلود
ثم لم ينقض الحـــديث ولـكن بعد ذا الوعد كله والوعيــد
والأطباء كلهـــم لحقـــوهم ضـــل عنهـم سعابهـم واللدود
وصحيح أضحى يعـود مريضاً وهو أوفى المــوت ممن يعــود

وفى عصرنا الحديث نرى الشعر يقوم بوظيفتـــه فى توضيح مبادىء الإسلام ، وتحليل مشكلاته العديدة، وتحذير الناس من الانغماس فى الشهوات والملذات وبيان منهج الرسول ﷺ فى الدعوة إلى ربه، وكثيراً ما كان شوقى أمير الشعراء يتخذ من المناسبات الدينيـــة المختلفة فرصة لإذاعة قصائده

---

(٢) العقد الفريد لأحمد بن عبد ربه ١٠٨/٣ .

الإسلامية العصماء التى يمدح فيها النبى ﷺ ، ويوضح منهجه فى الإصلاح ، ويعلن عن روعة الإسلام وعظمته فى مبادئه وتعاليمه ومناسكه ، يقول أحمد شوقى فى قصيدته البائية(١) .

أخا الدنيا أرى دنياك أفعى ... تبـــدل كل آونة إهابا
ومن عجب تشبب عاشقيهـا ... وتفنيهم وما برحت كعابا
جنيت بروضها وردا وشوكا ... وذقت بكأسها شهداً وصابا
فلم أر غير حكم الله حكما ... ولم أر دون باب الله بابا
ولم أر مثـــل جمع المال داء ... ولم أر كالبخيل به مصابا
فلا تقتلك شهوته وزنهـا ... كما تزن الطعـام أو الشرابا
وخذ لبنيك والأيام ذخراً ... وأعط الله حصته احتسابا
عجبت لمعشر صلوا وصاموا ... ظواهر خشيـة وتقى كذابا
وتلفيهم حيال المـال صماً ... إذا داعى الزكاة بهـم أهابا
لقد كتموا نصيب الله منه ... كأن الله لم يحص النصابا
ومن يعدل بحب الله شيئا ... كحب المال ضل هوى وخابا
فبى البر بينه سبيلا ... وسن خلاله وهدى الشعابا
وكان بيانه للهدى سبلا ... وكانت خيله الحق غابا
وعلمنا بناء المجد حتى ... أخذنا إمرة الأرض اغتصابا
وما نيل المطالب بالتمنى ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قوم منال ... إذا الإقدام كان لهم ركابا

تلك طبيعة الشعر ، استطاع الإسلام أن يوجهها لخدمة أغراضه ، وتحقيق أهدافه ، وأن يتخذ منها وسيلة حية ليعلن بها عن مبادئه وآرائه ، ويذيع أفكاره ومناهجه .

---

(١) الشوقيات جـ١ ص ١٠٤ .

ولقد قام الشعر بوظيفته فى هذا المجال على الوجه الذى أراده الإسلام ، وارتضاه لأغراضه المتعددة ، وفنونه الكثيرة .

وإذا كان الإسلام قد فهم طبيعة الشعر ، ووجهه الوجهة التى أرادها له ، فقد فهم طبيعة النثر منذ اللحظة الأولى التى ارتفع فيها أول صوت فى مكة يبشر بدين الله ، ويدعو الناس إلى الحق والهدى والخير .

لقد كان للنثر وظيفة فى نظر الإسلام كما كان للشعر وظيفة ، وكانت وظيفة النثر الأدبى أن يحمل رسالة الله إلى الناس ، وأن يدعوهم إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يسلط الأضواء الكاشفة على حياة المسلمين فيحلل مشكلاتهم ، ويجسد واقعهم ، ويوضح لهم الطريق السوى الذى يحقق أهدافهم ، ويوفر لهم السعادة فى دينهم ودنياهم .

كذلك فهم الإسلام وظيفة النثر ، ووجه فنونه وأغراضه ، فلقد حملت الخطابة لواء الدعوة الإسلامية منذ أول شعاع أشرق من نورها فى فجاج مكة ، تحدثنا كتب السيرة أن رسول الله ﷺ حين أمر بالجهر بالدعوة صعد على الصفا ، وقال : يامعشر قريش ، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذباً قط ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، ثم قال : يابنى عبد المطلب ، يابنى عبد مناف ، يابنى زهرة — حتى عدد الأفخاذ من قريش — إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيباً ، إلا أن تقولوا . لا إله إلا الله (١) .

وكانت هذه الخطبة إشارة البدء ، فانطلقت الدعوة فى طريقها ، تحطم ما تلقاه من مبادىء فاسدة ، وتزيل ما يعترضها من عقبات شديدة ، وتدعو

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٠٢

إلى الله على بصيرة هى ومن اتبعها . وكانت الخطابة فى كل ذلك سلاحها الماضى ، ولسانها الناطق ، وأداتها القوية فى التعبير والبيان خطب رسول الله ﷺ ذات يوم فحمد الله بما هو أهله ، ثم أقبل على الناس فقال (١)

« أيها الناس : إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، فإن العبد بين مخافتين : أجل قد مضى لا يدرى ما الله فاعل فيه ، وأجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الهرم ، ومن الحياة قبل الموت . فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعقب ، ولا بعد الحياة من دار إلا الجنة أو النار .

وخطب رسول الله ﷺ أيام التشريق فقال بعد حمد الله : « يأيها الناس هل تدرون فى أى شهر أنتم ؟ وفى أى يوم أنتم ؟ وفى أى بلد أنتم ؟ قالوا : فى يوم حرام ، وفى شهر حرام ، وفى بلد حرام ، قال : ألا فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى بلدكم هذا إلى يوم تلقونه ، ثم قال : اسمعوا منى تعيشوا . ألا لا تظالموا ـ ثلاثا ـ ألا إنه لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس منه . ألا إن كل دم ومال ومأثرة كانت فى الجاهلية تحت قدمى هذه . ألا وإن أول دم وضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ألا وإن كل ربا كان فى الجاهلية موضوع ، ألا وإن الله تعالى قضى أن أول ربا يوضع ربا عمى العباس . لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ، ولا تظلمون . ألا وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض . ألا وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ذلك الدين القيم . فلا تظلموا فيه أنفسكم . ألا لا ترجعوا بعدى كفارا

---

(١) الوسيط فى الأدب لأحمد الأسكندرى

يضرب بعضكم رقاب بعض. ألا وإن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون ولكن يسعى فى التحريش بينكم. اتقوا الله فى النساء، فإنهن عوان عندكم، لا يملكن لأنفسهن شيئا، وإن لهن عليكم حقا، ولكم عليهن حق ألا يوطئن فرشكم غيركم، وإن خفتم نشوزهن فاهجروهن فى المضاجع، واضربوهن ضربا غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، فإنما أخذتموهن بأمانة الله تعالى، واستحللتم فروجهن بكلمة الله. ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، ثم بسط يده فقال: ألا هل بلغت؟ ليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع».(١)

إن هذه الخطب البليغة التى أثرت عن رسول الله ﷺ كانت من العمد الراسخة التى قامت عليها الدعوة الإسلامية. فقد أرست مبادىء كثيرة، وشرعت مناهج متعددة، وسنت سننا واضحة، وشرحت للمسلمين أهداف الدعوة، ووسائل تحقيقها.

وهى إلى جانب ذلك كانت أداة التخاطب مع الوفود المقبلة على رسول الله ﷺ، ووسيلة التفاهم مع القبائل والعشائر التى دخلت فى دين الله أفواجا، وجاءت إلى رسول الله ﷺ تطلب أن يعلمها أمور دينها وأن يلقنها من الحكمة والخير ما تسعد به فى دنياها وآخرتها. وكان الرسول ﷺ يستجيب لذلك كله، فيعتلى المنبر، ويرسل من البيان والحكمة ما ينير به الطريق أمام المؤمنين، ويفتح به مسالك الخير أمام الراغبين فى طاعة الله، والحريصين على مغفرته ورضوانه.

وكذلك كانت الخطابة زمن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم. لقد اتخذوا منها وسيلة ناجحة، ينبهون بها الغافل، ويرشدون بها الحائر، ويهدون بها الضال، إلى جانب أنهم اتخذوا منها المنبر الأصيل الذى يعلنون

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/١٤٠

بواسطته أساليب حكمهم . ويحددون منهج حكومتهم ، ويرسمون خطتهم فى الإدارة . ويوضحون طريقهم فى سياسة المسلمين . وقد كان ضروريا أن يصعد الخليفة المنبر عقب توليه الخلافة وأن يخطب فى الناس بعد بيعتهم له . فيوضح الخطوط العريضة التى سيسير عليها فى قيامه بأمر المسلمين . خطب أبو بكر رضى الله عنه بعد أن بويع بالخلافة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه(١) : « أيها الناس . إنى قد وليت عليكم . ولست بخيركم فإن رأيتمونى على حق فأعينونى . وإن رأيتمونى على باطل فسددونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم . فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم . ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق منه ، أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم » .

وكذلك كانت خطب عمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم أجمعين بعد توليهم أمر الخلافة ، وبيعة المسلمين لهم . ومع أن هذه الخطب كان لها طابع رسمى إلا أنها كانت تتجه إلى توضيح حقوق الحاكم وحقوق المحكومين ، وتبين الخطة التى أرادها الخليفة ليحقق من ورائها نفع المسلمين ومصلحتهم وقد أصبحت هذه الخطب تقليداً مفيداً للخلفاء والحكام والولاة بعد ذلك ، يواجهون بها شعوبهم أول ما يواجهون حتى يكونوا على بينة من أمرهم ، وحتى يأخذوا أنفسهم بأساليب الحكم الجديد ، وحتى يتعاون الحاكم والمحكوم على أداء الرسالة التى قدر لكل منهم أن يحملها ، ويعمل على أدائها .

وإلى جانب هذا العبء الذى حملته الخطابة بأسلوبها الموجز ، وعبارتها الرصينة ، كان هناك عبء آخر استطاعت الخطابة أن تقوم به ، وأن تحرص على أدائه فى سهولة ويسر ، ومن غير توان ولا تقصير . ذلك هو عبء الدعوة إلى الله ، وتذكير المسلمين بأمور دينهم وتبصيرهم بجوانب الخير والشر ، وذلك أمر له مكانته الرفيعة ، ومنزلته السامية ، ولقد وجد فى العصور المختلفة جماعة من الوعاظ والنساك والزاهدين ، عزلوا أنفسهم عن ميادين الخلاف التى دبت بين طوائف المسلمين ، وابتعدوا عن المعارك الدائرة

والصراع المستمر ، واتجهوا إلى وعظ الناس ، وتوجيههم إلى عبادة الله عبادة خالصة بعيدة عن الزيف ، خالية من الضلال . وكان من هؤلاء الزاهدين الصالحين الحسن البصري ، وقد روى له الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » كثيراً من الخطب . جاء في إحداها (١) « يا ابن آدم بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا . يا ابن آدم . إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم به الثواء هاهنا قليل ، والبقاء هنالك طويل أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم ، ولا نبي بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم ، أنتم تسوقون الناس ، والساعة تسوقكم ، وإنما ينتظر بأولكم أن يلحق بآخركم ، من رأى محمداً ﷺ فقد رآه غادياً رائحاً ، لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة ، ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك ، فإنها عما قليل قبرك ، واعلم أنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك ، فرحم الله رجلا نظر فتفكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، وأبصر فصبر ، يا ابن آدم ، اذكر قوله تعالى « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه . ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » (٢) . عدل — والله عليك — من جعلك حسيب نفسك ، خذوا صفاء الدنيا ، وذروا كدرها ، دعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم ، لقد صحبت أقواما ما كانت صحبتهم إلا قرة العين ، وجلاء الصدر ، ولقد رأيت أقواما كانوا من حسناتهم أشفق من أن ترد عليهم منكم من سيئاتكم أن تعذبوا بها . وكانوا فيما أحل الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم عليكم منها . لو تكاشفتم ما تدافنتم . تهاديتم الأطباق . ولم تتهادوا النصائح . قال ابن الخطاب : رحم الله امرءاً

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ٢/١٠٥ .

(٢) سورة الاسراء آية ١٣ ، ١٤

أهدى إلينا مساوئنا ، أعدوا الجواب فانكم مسئولون . يا ابن آدم . ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمنى ، ولكنه ما وقر فى القلوب ، وصدقته الأعمال ،

إن أمثال هذه الخطب تمثل الروح الاسلامية الصافية التى كانت تحملها خطابة الدعوة الاسلامية فى العصر الأموى ، وسط ذلك الصراع الملتهب ، وبين ذاك الضجيج المستمر المنطلق من الخطابة السياسية المنتشرة فى ذلك العصر .

ولقد ظلت الخطابة تحمل عبء الدعوة إلى الله حتى يومنا هذا ، وستظل إلى ما شاء الله . ولعل الاسلام حين ربط الجمعة والعيدين بالخطبة كان يؤكد هذا المعنى ويشير إشارة واضحة إلى أن الدعوة إلى الله هى الوظيفة الأساسية التى أرادها الإسلام للخطابة ، ووجهها إليها .

وإذا كانت الخطابة تمثل جانبا من جوانب النثر الأدبى فإن الكتابة تمثل جانبا آخر له قيمته وأثره .

ولقد عنى الإسلام بهذا الجانب عناية كبيرة ، واتخذ منه أداة لنشر رسالة الله ، ووسيلة لإعلانها وذيوعها . وكان دليل اهتمام الإسلام بالكتابة أن وجه المسلمين إلى تعلمها . واشترط لفداء الأسرى الذين يعرفون القراءة والكتابه أن يعلم الواحد منهم عشرة من المسلمين .

حقيقة تأخرت الكتابة فى أداء رسالتها عن الخطابة . ولم يكن ذلك لقصور فيها ، ولكن لأن أدواتها لم تكن قد هيئت بعد . فالذين يجيدون القراءة والكتابة قلة من المسلمين . والكثرة الغالبة تجهل مبادئها وحروفها ، فهم بحاجة إلى الكلمة المسموعة ؛ وليسوا محتاجين إلى الكلمة المقروءة ، أضف إلى ذلك أن هذه الصفوة التى تجيد القراءة والكتابة لم تشغل نفسها بفنون الكتابة المتعددة . ولكنها ربطت نفسها بالقرآن الكريم تكتب ما يمليه عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم مما نزل به الوحى الكريم ، ولم يكن فى وسعها

أن تتجاوز هذا الحد حتى لا يختلط ما تكتبه بآيات القرآن الكريم فنقع بذلك فى خطأ جسيم .

والذى أعرفه أن طبيعة المرحلة التى عاشها المسلمون فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن تتطلب فنا من فنون الكتابة الأدبية . فالقرآن الكريم فيه هدى ونور ، والحديث الشريف فيه بيان وتفصيل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم بين المسلمين . يوضح ما كان خافيا ، ويفصل ما كان مجملا ، ويقدم لهم ما يحتاجون إليه من إرشاد أو توجيه . ولكن طبيعة تلك المرحلة كانت بحاجة إلى الكتابة الوظيفية التى تعمد إلى التدوين والتصنيف لا إلى الإنشاء والتأليف ، وكذلك كانت وظيفة الكتابة فى ذلك الوقت ، فقد اتخذ منها رسول الله صلى الله عليه وسلم أداة لتدوين ما نزل من الوحى فكان هناك كتاب يكتبون ما يمليه عليهم رسول الله عليه وسلم مما نزل عليه من كتاب الله ، ثم اتخذ منها وسيلة لنشر الدعوة بين الملوك والرؤساء حين بدأ الأمر يستقر لهذه الدعوة ، وأصبح ضروريا أن تنتشر فى بقاع الأرض فأرسل يدعوهم إلى الاسلام ، ويحملهم تبعة كفرهم ، وكفر أتباعهم ممن لم يدخل فى دين الله ، وتلك كلها نماذج للكتابة الوظيفية .

ويدخل تحت هذا اللون من الكتابة لون آخر ظهر فى عهد الخلفاء الراشدين ، واستعملوه فى تنظيم الدواوين ، وضبط الأعمال ، وتسيير الجند وتوجيه الولاة والقضاة والعمال ، ومن ذلك ما بعث به عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه يقول :(١) أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك الخصم ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس بين الناس فى مجلسك ووجهك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا يخاف ضعيف من جورك . البينة على من ادعى ، واليمين على

---

(١) العقد الفريد لأحمد بن عبد ربه ج ٢ ص ١٤٢ .

من أنكر ؛ والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما ، أو حرم حلالا ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ، ثم راجعت فيه نفسك ، وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه ، فإن الحق قديم ، الرجوع إليه خير من التمادى على الباطل . الفهم الفهم فيما يتلجلج فى صدرك مما يبلغك به كتاب الله ، ولا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . واعرف الأمثال والأشباه ، وقس الأمور عند ذلك ثم اعمد إلى أحبها عند الله ورسوله ، وأشبهها بالحق واجعل للمدعى أمداً ينتهى إليه ؛ فإن أحضر بينة أخذت له بحقه . وإلا وجهت عليه القضاء فإن ذلك أجلى للعمى وأبلغ فى العذر ، والمسلمون عدول ، بعضهم على بعض ، إلا مجلودا فى حق ، أو مجربا عليه شهادة زور ، أو ظنينا فى ولاء أو قرابة أو نسب ؛ فإن الله عز وجل ولى منكم السرائر ، ودرأ عنكم بالبينات والايمان ، ثم إياك والتأذى بالناس ، والتنكر للخصوم فى مواطن الحقوق التى يوجب الله عز وجل بها الأجر ، ويحسن بها الذخر ، فإنه من تخلص نيته فيما بينه وبين الله . ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس . ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره .

وقد ظلت الكتابة الإسلامية على هذه الحال فى عهد بنى أمية ، وفى المدة التى حكم فيها بنو العباس ، فيما عدا مجموعات من الكتب تشرح مبادىء العقيدة ؛ وتفسر كتاب الله تبارك وتعالى ، وتخدم أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك لون من الكتابة أدخل فى باب الكتابة العلمية منه فى باب الكتابة الأدبية . حتى هذه الكتب التى ألفها الباقلانى والجرجانى وغيرهما فى أسلوب القرآن الكريم ، وفى أسرار بلاغته ، وفى دلائل إعجازه . لا يطمئن الباحث المنصف إلى إدخالها فى دائرة النثر الأدبى ، ولكنه يطمئن تمام الاطمئنان حين يدرجها فى إطار الكتابة العلمية ، ذلك أن المباحث التى اشتملت عليها تدخل فى منهج البحث العلمى أكثر مما تخضع لمقاييس الأسلوب الأدبى .

لكننا فى العصر الحديث نرى كثيرا من الكتب تعرضت بالتحليل والدراسة لشخصيات إسلامية بارزة أو لموضوعات إسلامية حديثة بأسلوب الناقد الفاحص ، أو بتحليل الباحث الدقيق ، كل هذه الكتب أو كل هذه الموضوعات تعتبر من الدراسة الأدبية الجادة ، أو من النثر الأدبى الأصيل فكتابات العقاد التى تدور حول « عبقرية محمد » و « عبقرية عمر » و « عبقرية الصديق » و « عبقرية خالد » كلها كتابات إسلامية ناجحة وكلها كتابات تدخل فى دائرة الكتابة الأدبية ، لأنها كتبت بأسلوب أدبى رصين ، وقل مثل ذلك ، أو قل أكثر من ذلك فى الكتابات التى كتبها كتاب مسلمون من أمثال الرافعى ، والشهيدين حسن البنا . وسيد قطب . ومحمد حسنين هيكل . وأبى الأعلى المودودى وأحمد أمين وكثير وكثير غيرهم أولئك وهؤلاء . إن هؤلاء الكتاب بكتاباتهم الإسلامية الجادة استطاعوا أن يطوعوا الأدب فى أيديهم . وأن يجعلوا للأدب وظيفة جادة يرضى عنها الله ورسوله .

وليست هذه الوظيفة مقصورة على تلك الكتب الإسلامية التى يؤلفها أولئك الكتاب بأسلوب أدبى ممتاز بل تبدو واضحة جلية فى كثير من الأشكال الأدبية التى ظهرت فى ذلك العصر الحديث . فالمقال الأدبى مثلا من الأجناس الجديدة التى تمخض عنها الأدب فى العصر الحديث وهو من الأجناس الطيعة الممتازة التى يمكن توجيهها لخدمة الإسلام ، ولصالح المسلمين . حسبنا أن تتجه الأقلام المؤمنة إلى هذا المجال . وأن توجه الطاقات القادرة إلى هذا الميدان وأن تربى البراعم الفتية الناشئة من الكتاب على الالتزام الكامل بآداب الاسلام ومبادئه فى بناء المجتمع السليم .

ولست أنكر أن جهودا موفقة بذلت فى هذا السبيل ، ولكنها جهود مبعثرة متنافرة ، لم تجد القدرة الهائلة التى تجمع شتاتها ، وتوحد طريقها

لتؤتى ثمارها كاملة . وتقتصد الوقت والجهد فى سبيل الوصول إلى الهدف المنشود .

ومع ذلك كله فقد بدأ المقال الإسلامى يقوم بوظيفته على الوجه المرضى منذ بدأ الوعى الإسلامى ينتشر فى صفوف المسلمين ، ومنذ وجد دعاة مسلمون يجيدون القول . وينتقون الكلمة الواعية ، والعبارة السليمة ومنذ وجدت صحف ومجلات إسلامية تفتح صدورها لكل كاتب مسلم ، يرعى حق الخلق ، ويتقى الله فى قلمه ولسانه .

نستمع إلى الكاتب المسلم عبد الوهاب عزام ، وهو يقاوم الزحف الغربى الجديد ، ويدعو إلى دراسة ما يأتى به الغرب دراسة متأنية واعية ، فيقول(١) إن الشرقيين يتلقون عن الغربيين أفكارهم وعقائدهم ، كما يأخذون منهم منسوجات القطن والصوف ، ومصنوعات الحديد والنحاس ، وأصناف الأحذية، وتبع هذا الإعجاب بأوربا ، والزراية على الشرق، أن نسى الشرقيون تاريخهم ، وسير عظمائهم ، وكم فيهم من قدوة حسنة ، ومثل عظيم ، وكلفوا بتاريخ أوربا ، وسير رجالها ، على انقطاع الصلات بهم ، وأسباب الفخار بآثرهم ، فتقطعت بينهم وبين آبائهم وبلادهم الأواصر ؛ وكأنهم أوان شرقية تملؤها أوربا بما تشاء من حلو ومر ، وجيد ورديء ، فزايلتهم العزة والحمية والغيرة التى تدفعهم إلى المعالى ، وتسمو بهم عن مواطن الدنايا ، وضربهم التقليد بمساوئه . وما التقليد إلا أن يميت الإنسان عقله وقلبه ؛ ثم يتبع كل ناعق ، فعجزوا أن يجاروا أوربا فى معالى الأمور ، والمجد والحق وضعف كواعلهم أن تحمل أعباء العلم والعمل التى ينهض بها كرام الغربيين ، وهان عليهم أن يسعوا إلى الدنايا ، ويتهافتوا على الملاهى والعادات السيئة ، وكل ما لا يعوزهم إلى عقل وإدراك ، ورأى نفاذ ، وقلب أبى ونفس صبور .

---

(١) ملحق السياسة الأدبى بتاريخ ١٤/١٠/١٩٣٢

وهمة مخاطرة . وعزم مقدام وعزة طماحة إلى العلياء .

ذلكم حالنا اليوم ، وموقفنا من أوربا ، وذلكم شرحال ، وأسوأ موقف ، فما وراء هذه الأدواء إن أردنا لأنفسنا السلامة والعافية ؟

أول عنصر فى هذا الدواء أن نجد أنفسنا بعد أن فقدناها وضللنا عنها أعنى أن نعد أنفسنا أناسى أحياء مفكرين . لهم حقوق فى هذه الحياة وعليهم واجبات . يربأون أن يسخروا لغيرهم . وأن يكونوا عالة . يأخذون ولا يعطون وينقادون ولا يقودون . ويعلمون ولا يعلمون . ويأتمرون ولا يأمرون . فاذا أحسسنا فى أنفسنا كرامة الانسان . وأنفة الحر . فكرنا فعرفنا الذى نأخذ من أوربا والذى ندع . والذى نستحسن لأنفسنا والذى نستقبح . ونقدنا فقلنا : هذا حلال وهذا حرام ، وهذا طيب وهذا خبيث ، ثم رجعنا إلى تراث آبائنا نحفظ منه كل مفخرة . ونعتز فيه بكل مأثرة . وخططنا لأنفسنا فى معترك الحياة خطة من عمل عقولنا وأيدينا . ووحى تاريخنا وآدابنا . تصل ماضينا وحاضرنا بالمستقبل الذى هو أشبه بنا وبأخلاقنا وآدابنا وعقائدنا وتاريخنا .

وإذا أحسنا التفكير عرفنا فرق ما بين الصناعات والأخلاق والعادات ولم يلتبس علينا ما نأخذ من أوربا من العلوم الطبيعية ونتائجها . وما نتجنب من أخلاقها وآدابها . فإنه لا فرق بين الحساب والهندسة والكيمياء فى الشرق والغرب . ولكن شتان ما بينها فى العقائد والخلق . وسنن الاجتماع وما يتصل بذلك . فإن لكل أمة من أخلاقها وآدابها ثوبا حاكته القرون وعملت فيه الأجيال فليس يصلح لغيرها . ولا يصلح لها غيره .

بهذا المنطق الرزين الهادىء استطاع الكاتب المسلم أن يحدد الداء الوبيل الذى أصاب المسلمين . وأن يصف العلاج الناجع لهذا الداء . وأن يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الأخذ بهذا العلاج . ليبدأ المسلمون من علتهم

ويتجهوا الاتجاه الصحيح إلى بناء حاضرهم ومستقبلهم .

وقد ظهر فى هذا العصر كتاب كثيرون اتخذوا من المقال سلاحا قويا يدافعون به عن العقيدة السليمة . وينشرون عن طريقه الفكر الإسلامى الصحيح . ويشرحون بواسطته مبادىء الإسلام السامية . ومناهج التربية الإسلامية الرفيعة .

ومن الأجناس الأدبية الجديدة التى ظهرت فى العصر الحديث القصة والمسرحية .

ولهذا اللون الأدبى اثره الواضح فى توجيه الشباب . وتربية الشعوب .

ولقد اتسع الأدب الإسلامى لهذا اللون . وأدرك أبعاده ومراميه . ووجهه التوجيه الملائم الذى يصل به إلى تحقيق الهدف المنشود .

وإذا كنا نطمع فى تخطيط شامل يهدف إلى تجميع الجهود المبذولة لتنمية القصة الإسلامية . وتوسيع آفاقها ومجالاتها . فإننا لا ننكر أن هناك خطوات انطلقت فى هذا الطريق . وهى خطوات مباركة طيبة . ولكن الذى نرجوه أن تتضاعف هذه الخطوات . وأن تتعاون القوى والجهود لتوجيه القصة والمسرح إلى خدمة مبادىء الاسلام وتحقيق أهدافه الكبرى .

إن تاريخنا الاسلامى حافل بالمواقف المجيدة والأحداث المثيرة والفتوحات الواسعة والرجال الأفذاذ . وتلك جوانب مشرقة لو وجدت الأقلام القادرة على صياغتها صياغة قصصية ممتازة . ووجدت المواهب التى تقدمها للقراء فى صور روائية رائعة . أو تخرجها على خشبة المسرح فى مشاهد تمثيلية ناجحة لكان لها أكبر الأثر فى تحقيق أهداف الإسلام . وخدمة أغراضه النبيلة .

وبعد . فإن للأدب آفاقه الرحبة . وللإسلام مقاصده النبيلة . ولقد افهم الإسلام وظيفة الأدب فهما سليما . ووجهه الوجهة التى أرادها له . وكان

الأدب حريصا على القيام بوظيفته أمينا فى أدائها . لأنها تتفق مع طبيعته . وتتلاءم مع خصائصه ومقوماته .

وسيظل الأدب إلى ما شاء الله يؤدى هذه الوظيفة التى تتمثل فى نشر رسالة الله . والذود عن حياض الدين . والدفاع عن مبادئه ومقدساته . والسمو بوجدان المسلم . والتأثير فى عاطفته ومشاعره . وتوجيهه إلى أداء الأمانة التى حملها دون خلق الله أجمعين .